البوصيري

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ محمود عرنوس
القاضي الشرعي

تاريخ حياته

قرأت في العدد الأول من السنة الثالثة لمجلة «المعرفة» الغراء بحثاً قيماً لحضرة الأستاذ الكبير علي الجارم بحث فيه عن أحد شعراء مصر الخالدين ؛ ذلك الشاعر هو «شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري» وشكا الأستاذ كما شكا غيره من غموض سيرته وقلة ما يمكن أن يقال حول حياته .

والواقع أن حياة هذا الشاعر على شهرته تكاد تكون مجهولة . ولما كنت من الذين حبب إليهم البحث عن حياة شعراء مصر ؛ وكنت وقفت على شيء — وإن كان قليلا — يتعلق بحياة البوصيري ، فقد رأيت نشره في مجلة «المعرفة» ، ليكون بمثابة لبنة توضع في بناء ذلك التاريخ ، حتى إذا انضم ما كتبته إلى ما كتبه حضرة الأستاذ الجارم ، وما سيكتبه عن شعره كما وعد ، أمكن إظهار شخصية هذا الرجل العظيم .

وقبل الدخول في تفصيل تاريخه نقول : إن كلمة بوصير بضم الموحدة التحتية وسكون الواو وكسر الصاد وسكون المثناة التحتية أيضاً بعدها راء ، اسم يشترك فيه سبعة بلاد بالديار المصرية ، كما حققه عالم مصر علي مبارك باشا في الخطط التوفيقية . وصاحب الترجمة ينتسب إلى أحدها ولكن لإيقاع الباحث يهتدي إلى بلده ؛ غير أنه تبين من موالاة البحث أن المراد من (بوصير) المنسوب إليها البوصيري إنما هي بوصيرونا بمديرية بني سويف ، ويوجد بالقرب من هذه البلدة بلدة أخرى اسمها (دلاص) بفتح الدال وكسرها ، واقعة جنوب بوصيرونا المذكورة ، كان منها والد المترجم ، أما والدته فهي من بوصيرونا .

مولده ونشأته

نقل صاحب الخطط التوفيقية عن الشيخ علي الشناوي أحد الذين كتبوا على همزية البوصيري أن ناظمها العارف بالله تعالى «شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري» نسب إلى بوصير قرية بالصعيد ، وينتسب إلى دلاص قريه به أيضاً ، فإن أحد أبويه من أحد القريتين والآخر من الأخرى .

وربما ركبت له نسبة منهما وقيل الدلاصيري ؛ قدلا مأخوذة من دلاص وصيري من بوصير ؛ ثم اشتهر بالبوصيري ؛ وقولهم أبو صيري بالهمزة في أوله خطأ .

ولد الناظم المذكور سنة ثمان وتسعين وستمائة، وتوفي سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، ويقال له الصنهاجي نسبة إلى صنهاجة، قبيلة منها ابن آجروم . وكان الناظم وابن عطاء الله الاسكندري تلميذين لأبي العباس المرسي ، فغلب على البوصيري لسان الشعر ، وعلى ابن عطاء الله لسان النثر. هذا ما جاء في الخطط التوفيقية نقلاً عن الشيخ الشناوي .

غير أني لا أرى هذا صحيحاً ؛ لأننا إذا صدقنا هذه الرواية عن المولد والوفاة استحال أن يكون البوصيري تلميذ للشيخ أبي العباس المرسي ؛ وأن يكون اشترك في الطلب عليه مع تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري، لأن أبا العباس المرسي توفي سنة ست وثمانين وستمائة بالاسكندرية قبل ولادة البوصيري على هذه الرواية ، وتاج الدين بن عطاء الله الاسكندري توفي سنة سبع وسبعمائة ، فهو وإن عاصر البوصيري إلا أنه بعيد أن يشترك معه في الطلب في مثل سنه. إذاً وجب علينا أن نرجع إلى مصدر آخر نتبين منه تاريخ المولد والوفاة .

قال جلال الدين السيوطي في «حسن المحاضرة» عند ذكر شعراء مصر: منهم الشريف البوصيري صاحب البردة محمد بن سعيد بن حماد الدلاصي المولد، المغربي الأصل، البوصيري المنشأ ؛ ولد بناحية دلاص في يوم الثلاثاء أول شوال سنة ثمان وستمائة، وبرع في النظم ؛ قال فيه الحافظ فتح الدين بن سيد الناس : هو أحسن شعراً من الجزار والوراق ؛ مات سنة خمس وتسعين وستمائة.

وثم مصدر آخر ، وهو ما ذكره شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي ؛ قال في فاتحة شرحه على الهمزية: إن البوصيري هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله ابن صنهاج بن هلال الصنهاجي ؛ كان أحد أبويه من بوصير الصعيد والآخر من دلاص بكسر الدال فركبت النسبة منهما فقيل الدلاصيري ؛ ثم اشتهر بالبوصيري . قيل ولعلها بلد أبيه فغلبت عليه (هي بلد أمه كما مر) ، ولد سنة ثمان وستمائة. وأخذ عنه الإمام أبو حيان والإمام اليعمري أبو الفتح بن سيد الناس ، ومحقق عصره العز بن جماعة ، وغيرهم .

ومن مجموع هذه الروايات علمنا بلد أبيه وبلد أمه، وأنه ولد في بلد أبيه ونشأ في بلد أمه ؛ أما قبيلة صنهاجة التي ينتسب إليها البوصيري، فقد ضبطها القلقشندي في كتابه صبح الأعشى بفتح الصاد المهملة وسكون النون وفتح الهاء ؛ بعدها ألف ؛ بعدها جيم مفتوحة ؛ ثم هاء، وهم بنو صنهاج بن برنس بن بربر ؛ وقيل صنهاج بن أوريغ بن برنس بن بربر، ويقال إنهم من حمير ؛ ومن صنهاج قبيلة لمتونة التي منها ملوك المرابطين الذين كان منهم يوسف بن تاشفين باني مدينة مراكش انقرض ملكهم في المغرب بدولة الموحدين . وقد أطال المقريزي في كتابه «البيان والإعراب» في نسب قبائل صنهاج .

أشياخ البوصيرى والرواة عنه

أظهر شيوخ البوصيرى الشيخ أبو العباس المرسى ؛ وقد ذكره الشيخ الشعرانى فى كتابه «الطبقات» ترجمة طويلة ؛ وهذا الشيخ نشأ نشأة دينية ؛ إذ هو أظهر تلاميذ الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، كما كان البوصيرى وابن عطاء الله من أظهر تلاميذ أبى العباس المرسى .

ويظهر من كلام ابن حجر أن البوصيرى إنما لازم شيخه بعد أن ترك عمله الحكومى الذى سنتكلم عنه ؛ قال ابن حجر : كان البوصيرى يعانى صناعة الكتابة على الجبايات ؛ وباشر بلبيس الشرقية ؛ ثم ترك ذلك وصحب القطب أبا العباس المرسى ، فصارت عليه بركته ، وساعده لحظه وهمته ؛ إلى أن فاق أهل زمانه ورزقه الله من الشهرة والحظ مالم يصل إليه أحد من أقرانه .

وما قاله ابن حجر لا ينافى أن يكون البوصيرى تلقى العلم عن أبى العباس المرسى فى مصر قبل أن يلازمه فى كبره ، لأن الشيخ أبا العباس وإن كان دفين الاسكندرية ، إلا أنه كان يقيم فى مصر فى خط القسم بالقاهرة ، وكان يقرأ كبار الكتب ، كما جاء فى ترجمته المبسوطة فى كتاب الطبقات ، وكذلك كان يقيم فى مصر ابن عطاء الله الاسكندرى ، وبها توفى ، وفيها دفن .

بعد أن تخلى البوصيرى عن أعماله التى كان قائماً بها وقال مدائحه النبوية ، اجتمع به كبار العلماء وتلقوها عنه ؛ قال ابن حجر : أخذ العلم عن البوصيرى جماعة ، منهم الإمام أبو حيان وهو أثير الدين محمد بن يوسف بن حيان الأندلسى ، كان إماماً فى التفسير والنحو واللغة ، قدم القاهرة وروى عن البوصيرى ، وتوفى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، وله مواقف معروفة فى البحث مع ابن تيمية العالم المشهور ؛ ومنهم محقق عصره العز بن جماعة ، ولى قضاء الديار المصرية وعمر طويلاً وورد ذكره فى سلسلة الرواة الذين روى الهمزية عنهم ابن حجر ، فقد ذكر أنه رواها بجملة طرق علاها روايته لها عن شيخه أبى يحيى زكريا الأنصارى عن العز أبى محمد بن الفرات عن العز أبى عمر بن البدر بن جماعة ، عن الناظم . فابن جماعة روى عن الناظم همزيته ، كما جاء فى هذه السلسلة وتوفى سنة ثلاث وستين وسبعمائة ؛ ومنهم الأديب الظريف العالم الحافظ المحدث محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس ، ولد سنة إحدى وستين وستمائة ، وتوفى فى شعبان سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، وكان يروى عن البوصيرى بعض أشعاره ونوادره .

أعماله التى كان قائماً بها

قال محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى المتوفى سنة أربع وستين وسبعمائة فى كتابه « فوات الوفيات » : إن محمداً بن سعيد بن حماد البوصيرى كان يعانى صناعة الكتابة والتصرف ، وباشر الشرقية ببلبيس ؛ وله تلك القصيدة المشهورة التى نظمها فى مباشرى الشرقية (سنذكر طرفاً منها) .

ويقول ابن حجر : إن البوصيرى كان يعانى صناعة الكتابة على الجبايات وباشر ببلبيس الشرقية وبلبيس هذه كانت عاصمة قسم يقيم فيه الحاكم ،وكان هذا القسم يشمل ثلثمائة وثمانين بلدة ،وفق ماجاء فى «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية» ،جمع الشيخ شرف الدين يحيى بن المقر الجيعان ،وأصبحت اليوم عاصمة مركز بلبيس التابع لمديرية الشرقية ،وفى الخطط المقريزية :هى بفتح الموحدتين ،وفى التوفيقية : بفتح الباء وكسرها ،وفى القاموس :مضمومة الأول وقد يفتح ،وكانت أشهر بلاد الشرقية وقاعدة خط الخوف ومحل إقامة الحاكم ، ولها شهرة تاريخية .

فهمنا من هذه الروايات أن البوصيرى كان يلى عملاً فى الحكومة ،وهو مباشرة بلبيس ؛ ولكن لم نذكر طبيعة هذا العمل ولم نحدده بالذى يفهم من كتاب نهاية الأرب أن مباشر الجهة هو الذى كان يشرف على مساحة أرضها ،ويعرف المستحق عليها من المال والغلال ؛ إذ يقول : والذى يحتاج إليه مباشر الخراج بمصر ويعتمد عليه فى مباشرته :أنه إذا شمل الرى أرض الجهة التى يباشرها ،أن يبدأ بإلزام خولة البلاد (قياسو الأرض بعصبة المساحة) برفع قوانين الرى وصورتها ؛ وأن يكتب فى صدر القانون ما مثاله : قانون رفعه كل من فلان وفلان الخولة والمشايخ بالناحية الفلانية بما شمله الرى وعلاه النيل المبارك من أراضى الناحية المسماة كذا وكذا الخارجية ،وهو من الخدن (بالضم) ؛ويذكرون جملة قانون البلد ويفصلونه بالرى والشراقى ؛ ويبينون أنواع المزروع وأنواع الأرض بصفاتها وما هو مزروع فيها ؛ فإذا رفع إلى المباشر هذا القانون ؛ أشهد فيه على رافعه بأن الأمر على ما تضمنه ،ويحضر البلد ويشهد على كل زارع بما سجله من أراضى كل قبالة ،ويبين ما على الفدان من الغلة والدراهم ؛ ثم يصرف لكل مزارع ما جرت العادة بصرفه من التقاوى والدراهم ،ويكون ما يصرفه من أطيب الغلال ،فإذا ثبت الزرع واستوى ،ندب من مباشرى مساحة الأراضى ،من شاء من عدول ذوى خبرة بالمساحة ،وكاتب عارف أمين ؛ فإذا تمت المساحة ؛ أضاف إلى كل اسم ما كان تسلمه من تقاو وقروض ،وما عليه من عشر ودفر ورسوم ،وما لعله انساب من الباقى إلى آخر السنة الماضية .ا هـ باختصار .

وقد أطال صاحب نهاية الأرب فى بيان عمل المباشر ؛ومن بيانه نفهم أن هذا العمل لا يخلو القائم به من ظلم للناس ،خصوصاً فى تلك الأزمنة التى كان يعيش فيها البوصيرى ،ولذلك كان الناس ينظرون إلى هذا العامل بعين البغض ؛قال المقريزى عند كلامه فى ذكر الروك الأخير الناصرى وما ترتب عليه : من ذلك إبطال المباشرين من النواحى ؛فقد كانت البلاد المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى ،ما من بلد صغيراً كان أو كبيراً إلا وفيه عدة من كاتب وشاد ونحو ذلك ؛ فأبطل السلطان المباشرين ؛وتقدم بمنعهم من مباشرة النواحى ،إلا من بلد فيه مال السلطان ، فأراح الله سبحانه الخلق بإبطال هذه الجهات من بلاء لا يقدر قدره ولا يمكن وصفه .

كان البوصيرى مباشراً لبلبيس ، وقد علمنا طبيعة هذا العمل ؛ وكان يعلم مايفعله هؤلاء

المباشرون أمثاله من ظلم وأكل لأموال الناس بالباطل ، ولما فى نفسه من الضجر كره هذا العمل وحمل حملة منكرة على هؤلاء المباشرين ، لا أظن أنه وجه إليهم قارص الكلام لأنهم كانوا الأطاولته فى حقه ، ويسوفون فى إعطائه راتبه - كما يقول الأستاذ الجارم - بل لما رأى من سوء تصرفهم وظلمهم ، فرفع صوته عالياً بالإنكار عليهم .

رونا فيما سبق - عن الكتبى - أن البوصيرى ذم المباشرين بقصيدة ووعدنا أن نشير إليها فنقول الآن إن هذه القصيدة هى قصيدة نونية ، خفيفة الروح ، قال فى مطلعها :

نقدت طوائف المستخدمينا ... فلم أر فيهمو رجلاً أمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم ... مع التجريب من عمرى سنينا
فكتاب الشمال همو جميعاً ... فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا النلال وما عرفنا ... بهم فكأننا سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً ... ولا شربوا خمور الأندرينا

ثم يوجه القول فيها بعد ذلك إلى الوزير مخرضاً له فيقول :

أمولاى الوزير غفلت عما ... يتم من اللئام الكاتبينا
تنسك معشر منهم وعدوا ... من الزهاد والمتورعينا

ثم يعطف بعد ذلك على سكان مصر وأهل أديانها المختلفة فيقول :

وما أخشى على أموال مصر ... سوى من معشر يتأولونا
يقول المسلمون لنا حقوق ... بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط نحن ملوك مصر ... وأن سواهمو هم غاصبينا
وحلت اليهود بحفظ سبت ... لهم مال الطوائف أجمعينا

وهى قصيدة طويلة كلها على هذا النمط . وله كثير من الشعر القصصى والهزلى ، روى له ابن سيد الناس واقعة طريفة مع ناظر الشرقية أثناء حمله معه بذلك أنه كان للبوصيرى حمارة : استعارها منه الناظر ، فأعجبته ، فأخذها ، وجهز له مائتى درهم ثمناً لها ، فكتب له البوصيرى على لسانها إلى الناظر يقول :

يا أيها السيد الذى شهدت ... أخلاقه لى بأنه فاضل
ما كان ظنى ببيعنى أحد ... قط ولكن صاحبى جاهل
لو جرسوه على من سفه ... لقلت غيظاً عليه يستاهل
أقضى مرادى لو كنت فى بلدى ... أرعى بها فى جوانب الساحل
وبعد هذا فما يحل لكم ... أخذى لأنى من سيدى حامل

وكان الناظر - على ما يظهر - رجلاً ظريفاً ، حيث ردها ، ولم يأخذ البوصيرى الدراهم منه .

عانت نفس البوصيري هذه المظالم، فترك عمله ولحق بشيخه أبي العباس المرسي، وأخذ يقول مدائحه النبوية ، وهذه المدائح هي التي جعلت له هذا الصيت البعيد ؛ ومن أمهات قصائده النبوية القصيدة الهمزية التي مطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طولها سماء

وقد عنى بها العلماء فكتبوا عليها الشروح الكثيرة، من مطول ومختصر. وله قصيدة أخرى حاكى بها قصيدة (بانت سعاد) ، مطلعها:

إلى متى أنت بالذات مشغول ... وأنت عن كل ما قدمت مسئول

وله القصيدة المعروفة بالبردة أو البراة، وهي أكثر تداولاً من الهمزية ؛ وإن من يطلع على كتاب كشف الظنون ليأخذه العجب من كثرة ما كتب على هذه القصيدة ، وهي آخر قوله في المدائح. زوى صاحب فوات الوفيات أن البوصيري قال: كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها ما كان اقترحه على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي ، ففكرت في عمل قصيدتي هذه، فعملتها، واستشفعت إلى الله تعالى في أن يعافيني ، وكررت تلاوتها حتى عوفيت، ثم ساق حكايات تتعلق بهذه القصيدة.

ولهج الناس بقصيدتي البوصيري : الهمزية والبردة، وأثنوا على صاحبهما أطيب الثناء، غير أن الوهابية أصحاب محمد عبد الوهاب حملوا عليه حملة منكرة حتى كادوا يخرجونه من دائرة الإسلام، قال محمد بن عبد الوهاب في رسالته (شرح لا اله إلا الله): واعلم رحمك الله أن أشياء من أنواع الشرك الأكبر وقع فيها بعض المصنفين على جهالة لم يفطن لها ، من ذلك قوله في البردة :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وفي الهمزية من جنس هذا أو غيره أشياء كثيرة. وهذا من الدعاء لا يصلح إلا لله وحده .

وقد ألف أتباعه رسائل عن أسئلة رفعت إليهم في البردة. وكل مجمع على ذم البوصيري .

إلى هنا انتهى بنا القول باختصار في حياة البوصيري ؛ أما وفاته فكانت - على رواية الشيخ الشناوي - في سنة إحدى وثمانين وسبعمائة . وقد علمت ضعف هذه الرواية فلا يلتفت التعويل عليها؛ وقد جعل السيوطي وفاته سنة خمس وتسعين وستمائة؛ أما ابن حجر فإنه جعل وفاته في سنة ست أو سبع وتسعين وستمائة - على ما قاله المقريزي - ؛ لكن صوب شيخ الإسلام العسقلاني أنه توفي سنة أربع وتسعين وستمائة. وعلى جميع الروايات فإنه عمر طويلاً وقد كانت وفاته بالإسكندرية، كشيخه أبي العباس المرسي. جاء في الخطط التوفيقية عند ذكر مساجد الاسكندرية : أن مسجد البوصيري كان قديماً وجدده المرحوم سعيد باشا بناءاً حسناً، ورتب له ما تقام به الشعائر ، كما رتب فيه دروساً دائمة؛ والبوصيري هو شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري صاحب البردة والهمزية ، وله تآليف غيرهما ، كان أبوه من دلاص وأمه من بوصير، قرية تقرب من دلاص بمديرية بني سويف. اهـ رحمه الله .

محمد رمضان أوسى